خارج المدى

الرواية والديكتاتورية

فاضل السلطاني

في روايته "قناع الطاغية" يتناول الكاتب المغربي احمد عبد السلام البقالي شخصية ديكتاتور في بلد مشرقي اغتصب الحكم في بلده، وحكمه بالقوة. لكن الشعب يثور، بعد قمع طويل لا يحتمل، ويهدد بسقوط الطاغية الذي لجأ الى حيلة مبتكرة لانقاذ نفسه ونظامه: استدعاء اخيه الفار من ظلمه بعدما اقنعه بتولي الرئاسة بدلا منه، حتى تبقى السلطة محصورة في العائلة. لكن حينما عاد الاخ الهارب قام الحرس الجمهوري بنقله الى عيادة طبيب القصر الذي ركب وجهي الاخوين بدل أحدهما الاخر، حتى يحتال الطاغية مرة اخرى على شعبه بوجه اخيه.

والرمز بالطبع اكثر من واضح. لكن المفارقة ان يكتب اديب مغربي عن ظاهرة مشرقية بامتياز لم يكتو اشقاؤنا المغاربة بويلاتها لأسباب تحدث عنها كثير من الفلاسفة والمفكرين منذ القرن التاسع عشر، وهي ظاهرة الاستبداد الشرقي، التي عزاها قسم منهم، وخاصة ماركس، الى طبيعة نمط الانتاج الآسيوي. ومهما كانت الاسباب، فإن هذه الظاهرة لم تنتج معدلها الادبي لعوامل لا بد من التوقف عندها طويلا ودراسة اسبابها. ونعتقد انها دراسة لا تقل اهمية من النضال نفسه ضد الدكتاتورية التي ستعيد انتاج نفسها، وهي فعلت ذلك تاريخيا، باشكال مختلفة، بل وجدت من ينظر اليها، ويبررها تحت تسميات مختلفة اكثرها بغضا في تراثنا نظرية "المستبد العادل" لانها اكثر تمويها وضلالا.

وفي الأدبيات السياسية المعاصرة، او اجزاء كبيرة منها، اتخذت هذه المقولة لبوسا عصريا لا يقل تمويها وتضليلا تجسد في العبارة الشهيرة المستدركة دائما بـ "لكن" على طريقة قسم من المثقفين: "دكتاتور.. نعم ولكنه وطني". و"دكتاتور.. نعم، ولكنه معاد للاستعمار والرجعية..". وهي نغمات تتكرر منذ بداية الخمسينيات بعد اول ثورة "وطنية".

ومع مثل هذه الشعارات الجارفة، وقعت أعمال كثيرة تنتمي إلى الادب الذي اعتدنا ان نسميه "ادبا ثوريا" و"ملتزما"، في مطب كبير، اذ فقدت مرتكزها الاساسي، ومرتكز كل عمل ادبي مؤثر وباق: الانسان. لقد حل الشعار محل البشر في بلدان اختزلت فيها الامة في رجل، والرجل في امة. وبدلا من ان يعبر هذا الادب عن حركة المجتمع الخفية، لكن الحقيقية، بدا وكأنه يتحرك فوق المجتمع مبشرا بقيم زائفة غير موجودة في الارض باسم شعارات غائمة، عائمة في الهواء، مكرسا أكاذيب كبرى باسم الوطنية.

اننا نجد انفسنا في أدب اميركا اللاتينية، التي اكتوت مثلنا بظاهرة الدكتاتورية، كما في رواية"خريف البطريرك" لغابريل غارسيا ماركيز، و"حفلة التيس" لماريو فارغاس يوسا، على سبيل المثال، أكثر مما نجدها في اعمالنا، التي هي، كما في روايتي عبد الرحمن منيف" شرق المتوسط" و" شرق المتوسط.. مرة أخرى"، أقرب الى الشهادات التي لم تنجح في تفكيك الآلية الرهيبة التي تنتج الديكتاتورية، وتعريها أمامنا وأمام الناس والتاريخ، بالرغم من كونها أكبر ظاهرة عرفناها في تاريخنا العربي المعاصر إلى جانب الحرب.

الفنان هيمت محمد علي ينشد بالالوان قصائد الشاعر الياباني جنازومي

محيي المسعودي

عمان

قاعة المعرض

الفنان هيمت محمد علي

هيمت محمد علي واحد من الفنانين العراقيين الذين انفتحوا بفنهم على اجناس ابداعات مختلفة وخاصة الشعر وهو واحد من اولئك الفنانين الذين تنوعت ثقافتهم واتسعت بمقدار انفتاحهم على حضارات الشعوب - شرقا وغربا- وقد نال الفنان هيمت شهرة عربية وعالمية واسعة من خلال المعارض التي اقامها في مدن عالمية متباعدة ولم تكن تلك التجارب رغبة منه في ولوج العالمية ولكنها نتيجة الشراكة الانسانية الحقيقية للفنان مع مبدعين عالميين وايمانه بحضارات تلك الشعوب وثقافتها والتي اتت مردوداً للتعايش ما بين الفنان ومصادر الهامه في ثقافات الامم . ولم يات ايضا هذا التنوع الثقافي للفنان من فراغ حضاري بل كان دائما يستند الى البيئة التي ولد فيها الفنان وهي ذات ثقافات متنوعة بحكم جغرافيتها البشرية فهو المولود عام ١٩٦٠ في مدينة كركوك العراقية ذات الاعراق والثقافات الاصيلة المتنوعة المدينة التي يقطنها العرب والاكراد والتركمان والسريان والكلد اشوريون وغيرهم .. ومن هذه البيئة انطلق الفنان وهو يحمل في ذاته تنوعا ثقافيا واحتراما وايمانا بذلك التنوع فاقام خلال مسيرته الفنية ٢١ معرضا فنيا ثمانية منها في اليابان فقط والباقيات في بلدان عربية واوروبية مثل فرنسا وهولندا والنمسا وسويسرا وشارك في العشرات من المعارض في مختلف مدن العالم. بدات رحلة الفنان من العراق الى اليابان ثم الى الاردن واستقر منذ العام ١٩٩٢ بشكل نهائي في فرنسا. صدرت عنه كتب منها -تمائم العزلة - للمؤلفين برنارد نويل وفاروق يوسف وانجز بعض الجداريات الخالدة في اليابان والبحرين والمغرب ... ولكن الملفت للنظر في مسيرة الفنان تفاعله مع الشعر والشعراء العرب والعالمين فقد اقام سبعة معارض مع شعراء منهم ادونيس - و- اندريه فيلتر -و- كاتارو جينا زومي . واصدر ثلاثين كتابا بالاشتراك مع شعراء اخرين منهم مشيل بوتور ومحمد بنيس وقاسم حداد وسعدي يوسف وانتج عن رسومه فلمان الاول من اخراج فؤاد ميمي عام ١٩٩١ والثاني من اخراج فريال بن محمد عام ,٢٠٠٣

ومن خلال حديث للفنان هيمت محمد علي عن معرضه الاخير - زهور من السماء- والذي افتتح مساء الاثنين ٢٠٠٧/١/٢٩ في جاليري - لاينز- وسط العاصمة الاردنية عمان ندرك مدى علاقته بالشاعر الياباني كوتارو جنازومي ومدى تفاعله مع الثقافة اليابانية وبيئتها وخاصة مع الزهور التي كتب الشاعر قصائده عنها ورسم الفنان بمخيلته وحسه تلك العلاقات التي ربطت الشاعر بزهور بلده كما نتلمس الشعور والحس الانساني في تناول الفنان الزهور وقدرتها على التاثير فيه. . يقول هيمت محمد علي عن الشاعر جنازومي الذي استلهم من قصائده معرضه الاخير:

(كما لو انه كان يريد ان يهبها حياة متجددة كان كوتارو جنازومي يعيد كتابة قصائده بخطوط مختلفة. عام

لوحة من المعرض

١٩٩٥ كنا جالسين في مقهى في (جيبا) برفقة صديقين يابانيين اتفقنا على ان نقيم مشروعا مشتركا اشعاره ورسومي. بعد عودتي الى باريس وصلتني رسالة منه مع اربع زهور تحت عنوان زهور من السماء الرسالة تلك ضمت ايضا صورا لزهور ذيلها بشرح عن كل زهرة يومها بدات ادرك المعاني الخفية التي تتستر بها كل زهرة .

تلك المعاني التي وجد فيها الشاعر مرآة لعلاقته بالمرض والحياة والموت كان بين حين واخر يرسل لي قصائد كنت ارى فيها فرصته في التأمل والنجاة ووسيلته لاختراق الحياة الشاقة. حين التقيته مرة اخرى في اليابان عام ١٩٩٩ فهمت اكثر معاني تلك القصائد، بل ان صديقنا المشترك شوفوجيوارا حين قرأ تلك القصائد قال: كانها وصيته الاخيرة، حينئذ ادركت لماذا كان يعيد كتابة القصائد بخطوط مختلفة كما لو انه يريد ان يحررها من شكل بعينه ذلك الشكل الذي يقبض عليها مثل القبر. ما ان عدت الى باريس حتى بدأت العمل. عام ٢٠٠٢ اقمنا معرضا مشتركا (نسخ يدوية من تلك القصائد ورسوم هي مصدر الهامها) كنت انتظر حضوره يوم الافتتاح الا ان الاطباء لم يسمحوا له بالحركة فزرته في المستشفى رايته محاطا بالكتب وبين تلك الكتب رايت اوراقا كما لو انه يسلمني وديعة وبعد برهة سلمني الاوراق التي لا تزال بيضا وقلما من القصب كان يكتب به قصائده. في عينيه رأيت ان ذلك اللقاء سيكون لقاءنا الاخير .هو لقاء ما زال مستمرا بالرغم من غيابه ذلك لاني كلما رسمت لوحة من وحي اشعاره انظر في عينيه لاؤكد له انني امضي في طريق مشروعنا المشترك. لست وحيدا بل ان يده ممسكة بيدي التي ترسم ولان افضل وقت لرؤية الزهور في اليابان هو الربيع فقد قررت ان اعرض ذلك المشروع كاملا في اليابان في ربيع عام ,٢٠٠٨ اعتقد ان اصراري على المضي في هذا المشروع هو تعبير عن الوفاء لروح صديقي الشاعر والى اليابان التي تسللت زهورها القادمة من السماء الى رسومي (اذن الزهور) جاءت تسعى الى الفنان ورسومه وليس هو الذي سعى اليها وهذا يؤشر صدق المشاعر والرؤية لدى الفنان وهو ينجز لوحته التي ظل مناخها وبيئتها ياباني ولكن انعكاساتها حملت روحية الفنان وبيئته العراقية العربية لتشكل امتزاجا ومزاجا ثقافيا انسانيا لم يتعصب فيه عنصر لحساب مصدره بقدر اخلاصه للجمال المطلق .

واذا كان الفنان هيمت قد تميز باسلوبه الخاص في الرسم وبالوانه وخطوطه وتكويناته فان هذا التميز ظل قائما في اعمال هذا المعرض وان اختلفت مصادر الالهام والاشكال والموضوعات وظلت بعض عناصر هذا التميز صريحة واضحة وبعضها كان متماهيا مع التكوينات بكل صورها ولم تخفها تلك الالوان والازهار والامزجة اليابانية التي اخلص لها الفنان واعطاها كل طاقته وهناك ثمة علاقة تدعونا للتوقف عندها وهي علاقة الشاعر بالفنان وعلاقة الكلمة باللون هذه العلاقة التي حافظ فيها الفنان على شكل ومضمون وصياغة الشعر فيما يرسمه عن هذا الشعر لذلك نتلمس في معرضه الاخير الجمال البصري المباشر متوازيا مع موضوعات الشاعر الخاصة بالزهور ولكننا في الوقت نفسه نلمس في اللوحات ايضا ذلك السؤال الفلسفي الابدي عن الوجود -موتا وحياة - وهو خيط حريري رفيع ولكنه قوي جدا في الثقافة اليابانية هذا الخيط كان موجودا بقوة داخل اللوحات مما منحها -الى جانب الجمال- عمقا فلسفيا وتساؤلا ازليا.

استخدم الفنان في عمله مواد مختلفة الى جانب الكولاج الذي تمثل بأوراق الزهور الملصقة على سطح اللوحة وقد وضع كل تلويناته على ورق مصنوع باليد يختزن داخله قدرا كبيرا من الاصالة والتعبير عن الموضوعات المرسومة.

آخر الكوابيس: اختلفت الحكاية والمغزى واحد

لؤي عبد الإله

إن العراق جاء... والعراق قد ذهب في سلمه وحربه يعبه الماء، وتلهو الريح في ثوبه

فاضل السلطاني

كيف اسمي هذا الشعور؟

منذ استيقاظي صباح ذلك السبت، على خبر إعدام صدام حسين، وأنا أشعر بفراغ داخلي من نوع خاص؛ شحنة عاطفية ضخمة تتفكك في الأعماق تاركة وراءها فجوة. أو إذا اقتربت اكثر لوصف حالتي، أقول إنها شعور بفقدان الاتجاهات.

كان من المفترض ألا يكون للديكتاتور السابق أي نفوذ على عالمي الداخلي. فأنا تركت العراق قبل انتزاعه الرئاسة المطلقة عام ١٩٧٩، وأصبحتُ على بعد آلاف الأميال عن العراق. مع ذلك، ظل يحضرني في الأحلام بطرق مختلفة. في بعضها يحضر مباشرة وفي بعضها الآخر يكون واقفا وراء الرسالة التي تصلني من قصة الحلم.

في أحد الأحلام، شاهدتُ نفسي عائدا إلى بغداد، محاطا بعدد كبير من الأقارب داخل بيت جدتي. ووسط مشاعر الانبهار بالعودة إلى العالم الذي تجمعني به شبكة من خيوط الذاكرة، تعود إلى لحظة الولادة مرورا بالطفولة والمراهقة وانتهاء بسنوات الشباب الأولى. بين هذه المراحل عشرات العلاقات والأحداث الصغيرة والكبيرة؛ مئات من الاكتشافات التي صاغت كياني. وهذا ما عكسه الحلم بكثافة خارقة: حالة جذل واستسلام كامل للحاضرين حولي. فجأة ومن النافذة رحت أراقب وجوها غامضة تقترب من كل الاتجاهات محاصرة البيت. إنهم رجال الأمن. ولم تكن هناك طريقة أخرى للإفلات منهم سوى الاستيقاظ الهلع قبل أن أقع بأيديهم بلحظات.

لكن هذه الكوابيس التي لازمتني، طويلا، كانت تخص عددا كبيرا من المنفيين العراقيين. اكتشفت أن هناك أحلاما تتشابه في نهاياتها وتختلف في تفاصيلها، لكنها تصب في هدف واحد: نحن نعيش حالة حصار حتى مع ابتعادنا عن عالم الرعب الذي تصاعدت حدته، مع تبديل صدام حسين لقب السيد النائب إلى السيد رئيس الجمهورية حفظه الله ورعاه. كانت بعض أحلام الأصدقاء تأخذ طابعا مرحا لكن الجوهر تهديد خفي، لعلها كانت تشبه بعض أفلام هيتشكوك، أنت لا تدري سبب توترك حتى مع توفر عنصر التشويق والمتعة في متابعتها. كانت هناك أحلام تأتي ضمن مسلسل يتكرر فيه الحدث نفسه كل يوم. يحكي لي صديق، عن كابوس ظل يطارده كل يوم، وفيه يرى نفسه سائقا لسيارته الصغيرة ?رينو ٤?. لكنه يكتشف أنه كان سائقا عند صدام حسين. وعمله كان نقل ابنيه اللذين ما زالا صغيرين آنذاك بين القصر والمدرسة. ولم يتحرر من الحلم إلا بعد أن باع سيارته. وحينما سألته عن السبب، قال: لا أريد أن أبقى سائقا عنده.

في حلم آخر، شاهدته بطريقة أخرى. كان ذلك بعد احتلاله الكويت عام ١٩٩٠، وما أثاره ذلك الغزو من نشاطات دبلوماسية حثيثة، لرؤساء سابقين وأعضاء برلمانيين ومسؤولين كبار من شتى أنحاء العالم، لإقناعه بسحب الجيش من الكويت. وكنت، وأنا أتابع ذلك المسلسل أتضرع إليه في أعمق أعماقي أن يستجيب لتلك الجهود الواسعة. مع ذلك، خلق ذلك الوضع قدرا من الاسترخاء لعالمي الباطني. فأجهزة مخابراته الممتدة في كل صوب وحدب فقدت سطوتها على الخارج. إنه لأول مرة منذ تسلمه السلطة موضوع في الزاوية. لذلك جاء هذا الحلم ليقلب العلاقة بيني وبينه، ويضع شعوري العميق بالخوف على العراق وعلى أهله مركز ثقله:

ها أنذا أقف على رصيف داخل محطة بانتظار قدوم المترو. حولي كان يقف رؤساء وملوك من بلدان كثيرة. وأمامي كان يقف فوق سكة الحديد. كان يسعى لإقناعهم برأيه، ولعل تلك الشخصيات البارزة كانت متخوفة من قدوم القطار فيدهسه. مع ذلك يواصل خطبته بالعربية. التفت إلي طالبا، بنبرة تهديد مبطن، أن أترجم لهم ما كان يقوله.

ظل هذا الحلم ساكنا معي. وكأن العاصفة التي أعقبت تلك الفترة الهادئة، هي ما عناه الحلم عند وقوف صدام حسين فوق السكة الحديدية. كأنه من خلال التهديد بالانتحار يجبر الآخرين على تنفيذ ما يريده. لكنني أخطأت التفسير: فمن كان على السكة واقفا قدوم قطار الأنفاق هم العراقيون: الجنود الذين بعثهم إلى الكويت وأصبحت أجسادهم فحما لقنابل طائرات التحالف. في لعبة سماها بعض المعلقين السياسيين البريطانيين: صيد الديك الرومي. أو أولئك المدنيين الذين عانوا قصفا متواصلا زاد عن الشهر في بغداد والمدن الأخرى.

مع فرض العقوبات الدولية على العراق، تحررت من حالة الحصار، وأستطيع أن أقول أن الكوابيس اختفت عن زيارتي. لكن هاجسا برز بقوة في نفسي وأنا أتابع الموت البطيء الذي راح يقضم المجتمع العراقي يوما بعد يوم تحت تأثير الحصار الاقتصادي. فخلال فترة قصيرة تحولت قطاعات واسعة من الطبقة المتوسطة إلى جحافل من المفلسين. إذ هبطت مع ارتفاع التضخم الاقتصادي قيمة رواتبهم الشهرية إلى حد أنها ما عادت تكفي للعيش لأكثر من يوم أو يومين.

في تلك الفترة انغمرت مع بعض المنفيين العراقيين في نشاطات يائسة: كتابة رسائل إلى الأمم المتحدة مطالبين بالتخفيف عن العقوبات الاقتصادية، التي منعت وصول الأدوية للمرضى والأسمدة للفلاحين، ودمرت في طريقها أنظمة مثل الصحة والتعليم. أو المشاركة مع عدد من البريطانيين في تظاهرات مضادة للحصار. في أعماقي أن يستجيب لتلك الجهود الواسعة. مع ذلك، خلق ذلك الوضع قدرا من الاسترخاء لعالمي الباطني. فأجهزة مخابراته الممتدة في كل صوب وحدب فقدت سطوتها على الخارج. إنه لأول مرة منذ تسلمه السلطة موضوع في الزاوية. لذلك جاء هذا الحلم ليقلب العلاقة بيني وبينه، ويضع شعوري العميق بالخوف على العراق وعلى أهله مركز ثقله:

ها أنذا أقف على رصيف داخل محطة بانتظار قدوم المترو. حولي كان يقف رؤساء وملوك من بلدان كثيرة. وأمامي كان يقف فوق سكة الحديد. كان يسعى لإقناعهم برأيه، ولعل تلك الشخصيات البارزة كانت متخوفة من قدوم القطار فيدهسه. مع ذلك يواصل خطبته بالعربية. التفت إلي طالبا، بنبرة تهديد مبطن، أن أترجم لهم ما كان يقوله.

ظل هذا الحلم ساكنا معي. وكأن العاصفة التي أعقبت تلك الفترة الهادئة، هي ما عناه الحلم عند وقوف صدام حسين فوق السكة الحديدية. كأنه من خلال التهديد بالانتحار يجبر الآخرين على تنفيذ ما يريده. لكنني أخطأت التفسير: فمن كان على السكة واقفا قدوم قطار الأنفاق هم العراقيون: الجنود الذين بعثهم إلى الكويت وأصبحت أجسادهم فحما لقنابل طائرات التحالف. في لعبة سماها بعض المعلقين السياسيين البريطانيين: صيد الديك الرومي. أو أولئك المدنيين الذين عانوا قصفا متواصلا زاد عن الشهر في بغداد والمدن الأخرى.

مع فرض العقوبات الدولية على العراق، تحررت من حالة الحصار، وأستطيع أن أقول أن الكوابيس اختفت عن زيارتي. لكن هاجسا برز بقوة في نفسي وأنا أتابع الموت البطيء الذي راح يقضم المجتمع العراقي يوما بعد يوم تحت تأثير الحصار الاقتصادي. فخلال فترة قصيرة تحولت قطاعات واسعة من الطبقة المتوسطة إلى جحافل من المفلسين. إذ هبطت مع ارتفاع التضخم الاقتصادي قيمة رواتبهم الشهرية إلى حد أنها ما عادت تكفي للعيش لأكثر من يوم أو يومين.

في تلك الفترة انغمرت مع بعض المنفيين العراقيين في نشاطات يائسة: كتابة رسائل إلى الأمم المتحدة مطالبين بالتخفيف عن العقوبات الاقتصادية، التي منعت وصول الأدوية للمرضى والأسمدة للفلاحين، ودمرت في طريقها أنظمة مثل الصحة والتعليم. أو المشاركة مع عدد من البريطانيين في تظاهرات مضادة للحصار. في أعماقي كنت رهينة له أيضا. كنت لا أكف عن التضرع له بصمت أن يبادر بالقبول بعرض الغذاء مقابل النفط، وحينما تحقق لي ذلك الرجاء كان الوقت متأخرا.

خلال زيارتي الأولى لبغداد بعد فراق ٢٧ عاما، اكتشفت ما ترك رفضه لبرنامج النفط مقابل الغذاء لأكثر من عامين من آثار وخيمة. قالت خالتي، حينما رأتني أتطلع إلى حديقة دارها من النافذة. لقد بعناها. وأمام الحيرة التي قرأتها فوق وجهي، أضافت بنبرة اعتذارية: نحن محظوظون. هناك من باع نوافذ بيته وبلاط أرضيته وأثاثه وحنفياته.

بالمقابل، أدهشتني تلك القصور الرئاسية التي بنيت خلال سنوات الحصار. بدت لي بضخامتها المفرطة وصخورها السوداء الغريبة على محيطها، أقرب إلى الوهم منها إلى الحقيقة. ديكورا لأحلام أخرى. قدر بعض الخبراء تكاليف بناء كل قصر بحوالي ١٠٠ مليون دولار، وإذا أخذنا عدد القصور التي بنيت آنذاك بنظر الاعتبار، حيث تجاوز عددها الخمسين، سنكتشف هول الإنفاق عليها.

استرجع كابوسا آخر، يعود إلى عام ١٩٧٩: قاعة غاصة بجمهور مرعوب. وعلى خشبة المسرح جلس لوحده وراء طاولة. ولم يكن قد مضى على تسنمه الرئاسة فترة طويلة، بعد إقصاء سلفه الذي جلبه إلى الحكم: أحمد حسن البكر. استطيع قراءة غضب جنوني كامد، في عينيه اللتين تتنقلان ما بين ورقة أمامه وبين الحاضرين. ما عمق لدي الشعور بلا حقيقة ذلك الفيلم، الدخان الكثيف المتصاعد من سيجار ضخم ظل الرئيس حريصا على الاستمتاع به. وما يكاد يقرأ اسم شخص ما، حتى يقف الآخر، لينكر تهمة التآمر، لكنه قبل أن يتمكن من النطق بأي كلمة يرتفع صوت السيد الرئيس آمرا باقتياده إلى الخارج صوب ساحات الاعدام. تحضرني تلك اللحظة التي نهض أحد المتذللين والمرعوبين في آن ليصيح متوسلا: سيدي، كل هذه المشاكل من عبد الخالق السامرائي، الذي كان قد مضى عليه ما يقرب من سبع سنوات في سجن انفرادي، ليأتي جواب الرئيس وهو يمس حافة شاربه الأيمن: خذه من هذا الشارب. وهذا ما حدث للقيادي البعثي السابق الذي أخرج من زنزانته على عجل ليتم إعدامه مع أكثر من خمسين رفيقا.

وها أنذا أشاهد كابوسا من نوع آخر: هذه المرة، بدلا من القاعة، أرى غرفة شبه معتمة. فجأة يبرز البطل نفسه، لكنه الآن أكبر سنا بكثير عما كان عليه في عام ,١٩٧٩ مع ذلك ظل محتفظا بوسامته. التغيير الوحيد الذي طرأ على هذا الحلم، وخلق في نفسي هذا الشعور العميق بفراغ غريب، هو تقلب الأدوار. فبدلا من أن يكون هو المتحكم بمساره، أصبح كائنا طيعا بيد ثلاثة رجال مقنعين. إنه الآن يستمع إلى أحدهم الذي راح يوضح له بأناة ما سيحدث بعد ثوان.

انتابني خوف شديد، استطيع الآن فقط تحديد سببه: كنت أخشى أن ينهار أمام جلاديه، فيضطروا إلى سحبه مثل طفل خائف من ابرة تلقيح. كنت اتضرع إليه للمرة الأخيرة أن يكون بحجم الرعب الذي زرعه في نفسي، بحجم الخراب والشقاء الذي خلّفه وراءه، بحجم حروبه الكارثية التي تضاهي الحربين العالميتين، والتي حصدت أكثر من مليون عراقي.

نحن ننجح في مواصلة حياتنا وفق هذا المبدأ المنطقي البسيط: أ هي أ. فالسيارات التي تتحرك على الأرض لن تطير فجأة، وصلابة المبنى الذي نمر بجانبه كل يوم لن تتغير فجأة فتطوح به فوق رؤوسنا، والرجل الذي حوّل بلدا إلى حطام، لن يفقد رباطة جأشه في آخر لحظات حياته. قرأت لاحقا أنه جادل أحد الجلادين الملثمين(من يخاف من؟) بما معناه: أنا الذي بنيت العراق. أنتم لم تكونوا شيئا قبلي.

كيف يمكن القول إن التراجيديا الإغريقية انتهت في عصرنا؟ أن يكون عقب أخيل الذي لم يمسه الماء المقدس سببا لمصرعه بسهم باريس؟

عزاء وحيد. يكتب تولستوي في روايته "الحرب والسلم" هذه الجملة الميتافيزيقية: الأفراد ليسوا سوى أدوات غير طوعية في التاريخ ينفذون الأهداف المخفية عنهم.

هل سيتمكن أحفادنا من اكتشاف معنى للتخبط الذي يخوضه الأفراد الأحياء اليوم؟